

ثَمُودُ

عناصر الموضوع

٢٤٨	التعريف بـثمود
٢٥٠	ثمود في القرآن
٢٥١	رسول الله إلى ثمود ورسائله
٢٥٤	موقع قوم ثمود من رسولهم ومعجزته
٢٧٠	نعم الله على قوم ثمود وموقفهم منها
٢٧٣	عاقبة قوم ثمود

التعريف بثمود

أولاً: التسمية:

اسم ثمود عَلَّم على قبيلة ثمود قوم سيدنا صالح عليه السلام. وقد ذكر ابن فارس أن الثاء والميم والذال تدل على القليل من الشيء^(١). والثَّمَد: موضع يلزم ماء السماء، وله مسایل، وتحفر في نواحيه ركايا تُمَلَأ من مائه، فيشرب الناس الماء الظاهر حتى يجف، فتبقى تلك الركايا بعده فهي الثماد^(٢)، ولهذا سموا ثمود على تلك الأثمد التي جعلوها لريهم وشربهم، وذلك أشبه أن تكون التسمية في أصلها منسوبة لهذه الأثمد، التي ربما يكون أئمدها جدهم ثمود، فنسبوا إليه، وأصبح الاسم عَلَمًا على أبناء ثمود.

وقيل: سميت ثمود لقلة مائها، ولأن الثمد هو: الماء القليل^(٣).

ثانيًا: موقع ثمود:

يعد المؤرخون ثمود من قبائل العرب العاربة البائدة^(٤)، وكان مسكنهم الحجر في وادي القرى بين بلاد الشام والحجاز، ولهذا عرفوا بأصحاب الحجر^(٥). قال سبحانه تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْحِجْرِ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الحجر: ٨٠]. وقد مر النبي صلى الله عليه وسلم مع أصحابه بالحجر في طريقهم إلى تبوك^(٦)، والحجر، مدينة من مدن النبط للقديمة المهمة تقع على شريان التجارة في العالم القديم^(٧).

وقد ذهب بعض الباحثين إلى أنهم سكنوا منطقة الحجر التي تسمى (مدائن صالح)^(٨). وقد جاء ذكر الموضوع في القرآن: ﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْحِجْرِ الْمُرْسَلِينَ﴾

(١) مقاييس اللغة، ابن فارس، ١ / ٣٨٧.

(٢) أساس البلاغة، الزمخشري ١ / ٧٦.

(٣) لباب التأويل، الخازن، ٢ / ٢٢٠.

(٤) انظر: تاريخ الرسل والملوك، الطبري، ١ / ١٣٣، تاريخ ابن خلدون، ٢ / ٢٨.

(٥) انظر: معجم البلدان، ياقوت الحموي ٢ / ٢٥٥، ومروج الذهب، المسعودي ١ / ٤٢.

(٦) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب أحاديث الأنبياء، باب (وإلى ثمود أخاهم صالحًا) ٤ / ١٨١، رقم ٣٣٨٠.

(٧) دراسات في تاريخ العرب القديم، أحمد صليبي، ص ٣٤.

(٨) انظر: أطلس تاريخ الأنبياء والرسل، سام المغلوث ص ٩٦.

[الحجر: ٨٠] (١).

ثالثاً: زمن ثمود:

ظهرت ثمود بعد عاد، وقبل قوم لوط وقوم شعيب. وعلى هذا فإن أقل تقدير لفترة ظهورهم هو ما يزيد عن أربعة آلاف سنة من الآن، حيث أن لوطاً عليه السلام هو ابن أخ إبراهيم عليه السلام، وقد عاشا قبل أربعة آلاف سنة. وهذا الترتيب لهؤلاء الأقوام قد ورد في قوله تعالى ﴿وَيَنْقُورُ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ وَمَا قَوْمَ لُوطٍ مِّنْكُمْ بِبَعِيدٍ﴾ [هود: ٨٩].

وجاء في الموسوعة البريطانية: أن منشأ ثمود هو جنوب الجزيرة العربية، إلا أن مجموعة كبيرة منها انتقلت إلى الشمال في تاريخ مبكر واستقرت على منحدرات جبل أثلب، وقد كشفت الحفريات الأثرية عن كتابات حجرية وصور ثمودية ضخمة عبر وسط الجزيرة العربية أيضاً. واليوم وبالرغم من كل ما كانوا عليه لم يبق لهم من أثر سوى هذه البقايا التي تخبرنا عن الفن الذي كان يطبع عصرهم ﴿وَتَنحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَرِهِينَ﴾ [الشعراء: ١٤٩].

(١) المفردات، الراغب الأصفهاني ص ١٠٧.

ثمود في القرآن

ورد ذكر (ثمود) في القرآن الكريم (٢٦) مرة في (٢٢) سورة.
وقد وردت قصة ثمود في القرآن في السور الآتية:

السورة	الآيات
الأعراف	٧٩-٧٣
هود	٦٨-٦١
الشعراء	١٥٩-١٤١
النمل	٥٣-٤٥
فصلت	١٨/١٧
الذاريات	٤٥-٤٣
القمر	٣١-٢٣
الحاقة	٥-٤
الشمس	١٥-١١

[النحل: ٣٦].

وقوله: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوْحِيَ إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥].

وهذا على وجه الإجمال وفصل لبعضهم فقال عن نوح: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَنْقُورِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ [المؤمنون: ٢٣].

﴿وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَنْقُورِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ [الأعراف: ٧٣].

﴿وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَنْقُورِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ [هود: ٥٠].
﴿وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَنْقُورِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ [هود: ٨٤].

وهذا خطاب واحد لهم جميعاً، وأرسل الله سبحانه وتعالى سيدنا صالحاً عليه السلام إلى قومه، وكان أوسطهم وأفضلهم أسرة وعشيرة، وموضع مشورتهم ويصدرون عن رأيه ويرجون له ومنه الخير، فلما دعاهم لتوحيد الله وحده وترك الأوثان، والتوجه بالعبادة لله وحده، وألح عليهم وأنذرهم بالوعيد والعذاب الشديد طلبوا منه أن يخرج لهم آية في عيدهم، دالة على صدقه عناداً ونفاقاً، فاتاهم الله الناقة آية بينة، فأصروا على عنادهم، بل استمروا في

رسول الله إلى ثمود ورسالته

أرسل الله تعالى إلى ثمود أخاهم صالحاً رسولاً يدعوهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له.

قال تعالى: ﴿وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَنْقُورِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ هَدِيَةٌ نَاقَةٌ اللَّهُ لَكُمْ آيَةٌ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمْسُوهَا يَسُوءَ فَيَأْخُذْكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [الأعراف: ٧٣].

وأمرهم بإخلاص العبادة لله سبحانه وتعالى، وقد جاءهم بالبرهان على صدق دعوته، فأخرج لهم من الصخرة ناقة عظيمة، وأمرهم ألا يتعرضوا لها بأي أذى، فيصيبهم عذاب موجه.

[انظر: صالح عليه السلام: التعريف بصالح عليه السلام]

رسالة سيدنا صالح عليه السلام إلى ثمود:

أولاً: رسالته دعوة للتوحيد:

فقد ورد في القرآن الكريم الخطاب ببعث الرسل وإرسالهم إلى أقوامهم بدعوة التوحيد.

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ أَعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾

ويجادلهم تارة بالتي هي أحسن في موضع الجدل، مؤكداً على أن عبادة الله هي الحق، والطريق المستقيم. ولكن قومه تمادوا في كفرهم، وأخذوا يدبرون له المكائد والحيل حتى لا يؤمن به أكثر الناس، وذات يوم كان صالح عليه السلام يدعوهم إلى عبادة الله، ويبين لهم نعم الله الكثيرة، وأنه يجب شكره وحمده عليها، فقالوا له: يا صالح ما أنت إلا بشر مثلنا، بل وذلك خطاب كل الأمم المكذبة لرسولهم الذين بعثوا إليهم: ﴿مَا

أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا﴾ [يس: ١٥].

أي: كان هذا احتجاجهم في رد الرسائل يحتجون على الرسل فيقولون -والله أعلم-: إن الرسل إنما يجيئون من عند المرسل، وأنتم نشأتم بين أظهرنا لم تأتوننا من عند أحد في الظاهر، ولا نرى لك خصوصية لا في الخلقة ولا في القدرة والمال وغيره وإذا كنت تدعي أنك رسول الله، فلا بد أن تأتينا بمعجزة وآية.

قال تعالى: ﴿وَإِلَىٰ تَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنِّ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَ تَكْثُمُ بَيِّنَةٌ﴾ [الأعراف: ٧٣].

وكان رد الرسل عليهم صلوات الله وسلامه: ﴿إِن نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يُنْزِلُ عَلَيْنَا مَنِّ سَاءَةٍ مِنْ عِبَادِهِ﴾ [إبراهيم: ١١].

غيهم حتى ينموا به ويصدقون رسالته، فدعا الله فأخرج لهم الناقة مع فصيلها بالأوصاف التي طلبوها من صخرة، وكانت مميزة بكثرة لبنها وشكلها رغم أنها آية من الله وحجة ظاهرة، أصروا على عنادهم، وعتوا من أمر ربهم وتجرأوا على انتهاك حرمة الله فعقروا الناقة، فحق عليهم الهلاك، وكلمة العذاب. ولما عقروا الناقة وعدهم سيدنا صالح بالهلاك بعد ثلاث أيام.

قال تعالى: ﴿فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَٰلِكَ وَعَذَابُ كَذُوبٍ﴾ [هود: ٦٥].

وقد ذاقوا مرارة الترقب والانتظار خلال تلك الأيام، فلما اكتملت الأيام الموعودة آتاهم العذاب صبيحة يوم نحس، فأخذتهم رجفة شديدة زلزلت بهم الأرض، وصاعقة محرقة من فوقهم، وصيحة واحدة مفزعة قطعت نياط قلوبهم وتركتهم أجساداً بلا أرواح، وبقيت ديارهم عبرة على من الأيام والعصور^(١).

ثانياً: سيدنا صالح عليه السلام يدعو قومه بالحكمة والموعظة الحسنة:

كان صالح عليه السلام يخاطب قومه بأخلاق الداعي الكريمة، وأدابه الرفيعة ويدعوهم بالحكمة والموعظة الحسنة تارة،

(١) انظر: فتح القدير، الشوكاني ٢/ ٥٠٨، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٩/٩.

قَالَ يَنْقُورِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيْنَةٍ مِّن رَّبِّي وَءَاتَنِي مِنهُ رَحْمَةً فَمَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُ فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ ﴿٦٣﴾ [هود: ٦٢-٦٣].

وهذا تल्पف منه لهم في العبارة، وحسن تأت في الدعوة لهم إلى الخير، أي: فما ظنكم إن كان الأمر كما أقول لكم، وأدعوكم إليه، ما عذرکم عند الله، وماذا يخلصكم من بين يديه، وأنتم تطلبون مني أن أترك دعائكم إلى طاعته. وأنا لا يمكنني هذا لأنه واجب علي، ولو تركته لما قدر أحد منكم، ولا من غيركم، أن يجبرني منه ولا ينصرني، فأنا لا أزال أدعوكم إلى الله وحده لا شريك له، حتى يحكم الله بيني وبينكم. أو أي: غير أن تجعلوني خاسراً بإبطال أعمالي وتعريضي لسخط الله تعالى أو فما تزيدونني بما تقولون غير أن أنسبكم إلى الخسران وأقول لكم: إنكم الخاسرون، فالزيادة على معناه، والفاء لترتيب عدم الزيادة على انتفاء الناصر المفهوم من إنكاره على تقدير العصيان مع تحقق ما ينفيه من كونه عليه الصلاة السلام على بينة من ربه وإيتائه النبوة^(٢).

وقالوا له أيضًا: ﴿قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمَسْحُورِينَ﴾ [الشعراء: ١٥٣].

أي: من المسحورين، يعنون مسحورًا لا تدري ما تقول في دعائك إيانا إلى

(٢) إرشاد العقل السليم، أبو السعود، ٣/ ٣٦٥.

رابعًا: منهج سيدنا صالح عليه السلام في الدعوة:

أما منهج النبي صالح عليه السلام فإنه لا يختلف عن منهج أخويه نوح وهود عليهما السلام؛ في الدعوة إلى الله تعالى في عدم الشرك به وإفراده بالعبادة، لكن الكثير منهم رفض هذه الدعوة فأذوا نبي الله صالحًا وهموا بقتله وعقروا الناقة التي جعلها الله آية على صدقه، وقد كان حذرهم من قتلها فأخذهم الله أخذ عزيز مقتدر.

قال تعالى: ﴿وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَنْقُورِ أَعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنَ اللَّهِ عِزَّةٌ هُوَ آتِسَّكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَأَسْتَعْمِرُكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تَوْبُوا إِلَيْهِ﴾ [هود: ٦١] - ﴿فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تَوْبُوا إِلَيْهِ﴾ - أي: فاسألوه أن يغفر لكم ما أشركتم وما أجرتم، ثم توبوا وارجعوا إليه كلما وقع منكم ذنبا أو خطأ^(١).

﴿قَالُوا نَصَلِّحُ قَدْ كُنْتَ مِنَّا مَرْجُوءًا قَبْلَ هَذَا أَنْتَهَمْنَا أَنْ نَعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَإِنَّا لَفِي شَكِّ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ﴾ [هود: ٦١-٦٢].

أي: قد كنا نرجو أن يكون عقلك كاملاً قبل هذه المقالة، وهي دعاؤك إيانا إلى أفراد العبادة لله، وترك ما كنا نعبد من الأنداد، والعدول عن دين الآباء والأجداد.

ولهذا قالوا: ﴿أَنْتَهَمْنَا أَنْ نَعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَإِنَّا لَفِي شَكِّ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ﴾ ﴿١٢﴾

(١) المنار، ١٢/ ١٠١.

إفراد العبادة لله وحده، وخلع ما سواه من الأنداد. والمراد بالمسحورين: المسحورين المخدوعين^(١).

موقع قوم ثمود من رسولهم ومعجزته

ما من دعوة جاء بها رسول إلى قومه وإلا انقسم القوم إلى مستجيبين وغير مستجيبين، وسوف نتناول ذلك بالبيان فيما يأتي:

أولاً: موقف ثمود من رسولهم عليه السلام:

أولاً: قوم ثمود لا يستجيبون لنبيهم عليه السلام:

كانت ثمود أمة مشركة تعبد الأصنام وتجحد تفرد الله سبحانه وتعالى بالعبادة، شأنها في ذلك شأن من كان قبلها من الأمم كقوم نوح وقوم هود، فكان مستهل دعوة صالح عليه السلام دعوتهم إلى عبادة الله وحده، وقد ورد ذلك في عدة مواضع في القرآن الكريم، ولكن الحديث عن شركهم وعبادتهم الأصنام لم يرد إلا في آية واحدة هي قوله تعالى: ﴿قَالُوا يَا صَالِحُ قَدْ كُنْتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا أَتَنْهَانَا أَنْ نَعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِي شَكِّ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبِينَ ﴿٦٢﴾﴾ [هود: ٦٢].

وكان هذا جواباً لدعوة صالح إياهم إلى التوحيد في قوله تعالى: ﴿وَالْإِنَّمُودُ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ أَعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهِ غَيْرُهُ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَأَسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوا ثُمَّ تَوَبُّوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيمٌ مُّجِيبٌ ﴿٦١﴾﴾

(١) معالم التنزيل، البغوي، ٦/ ١٢٥.

[هود: ٦١].

وغيرهما^(٥)، ثم يستعمل في كل ما يتفعل به ويشاء^(٦).

وقد دل على كونه شركاً حديث ابن مسعود رضي الله عنه مرفوعاً: (الطيرة شرك، الطيرة شرك، ثلاثاً)^(٧).

قال ابن الأثير: «وإنما جعل الطيرة من الشرك لأنهم كانوا يعتقدون أن التطير يجلب لهم نفعاً أو يدفع ضرراً إذا علموا بموجبه، فكأنهم أشركوه مع الله في ذلك»^(٨).

وحديث القرآن عن تطير قوم صالح ورد في قوله تعالى: ﴿قَالُوا أَطِيرْنَا بِكَ وَيَمْنُ مَعَكَ قَالَ طَيْرِكُمْ عِنْدَ اللَّهِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ﴾ [النمل: ٤٧].

قال الطبري في تفسير الآية: «أي: تشاء منا

الطير والظباء وغيرهما، بأن يمر من يسارك إلى يمينك، وكانوا يتيمنون به. والبوارح: جمع بارح وهو عكس السانح، أي: الذي يمر من يمينك على يسارك، وكانوا يتشاءمون به.

انظر: لسان العرب، ابن منظور ١/٢٤٦.

(٥) انظر: النهاية في غريب الحديث والأثر ٣/١٥٢.

(٦) انظر: المفردات ص ٣١٠.

(٧) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الطب، باب في الطيرة، ٤/٢٣٠، رقم ٣٩١٠، والترمذي في سننه، كتاب السير، باب ما جاء في الطيرة، ٤/١٦٠ - ١٦١، رقم ١٦١٤.

قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح لا نعرفه إلا من حديث سلمة بن كهيل.

وصححه الألباني في صحيح الجامع الصغير، ١/٧٣٣، رقم ٣٩٦٠.

(٨) النهاية في غريب الحديث والأثر ٣/١٥٢.

فالقوم جعلوا الدعوة إلى عبادة الله وحده سبباً لحط الدرجات والقدح في المروآت، فقالوا لصالح مظهرين التحسر وخيبة الرجاء: ﴿فَدَكُنْتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا﴾ أي: كنا نرجو أن تكون فينا سيدياً^(١)؛ لما كنا نرى منك من دلائل السداد ومخايل الرشاد^(٢) قبل هذا القول العجيب الذي جئت به؛ أفأنت تدعوننا إلى ترك عبادة هذه الأصنام التي توارثنا عبادتها آبا عن جدّ؟

ثم بينوا موقفهم من الدعوة إلى التوحيد بأسلوب المتهمك في صورة المنصف للحق، المشفق على صالح، فقالوا: ﴿وَإِنَّا لَفِي شَكِّ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ﴾ قال الفخر الرازي:

والشك هو أن يبقى الإنسان متوقفاً بين النفي والإثبات، والمريب: هو الذي يظن به السوء، فقوله: ﴿وَإِنَّا لَفِي شَكِّ﴾ يعني: أنه لم يترجح في اعتقادهم صحة قوله ﴿مُرِيبٍ﴾ يعني: أنه ترجح في اعتقادهم فساد قوله، وهذا مبالغة في تزييف كلامه^(٣).

ثانياً: تطير قوم ثمود:

التطير لون من ألوان الشرك ورد ذكره عن قوم ثمود، وأصله مأخوذ من التطير بالسوانح والبوارح^(٤) من الطير والظباء

(١) جامع البيان، الطبري ٧/١٢.

(٢) إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٣/٢٦٣.

(٣) مفاتيح الغيب، الرازي ٩/١٨.

(٤) السوانح: جمع سانح، وهو ما ولأك ميامنه من

وما كان من أمر قوم صالح عليه السلام، إلا الصد والتكذيب، وكيف نجاه الله تعالى مع من آمن به، وكيف قطع دابر القوم الذين ظلموا بكفرهم، وعتوهم ومخالفتهم رسولهم عليه السلام. ومع إنهم شهدوا آثار هلاك قوم عاد وتسامعوا به إلا أنهم لم يعتبروا بما كان من أمر سلفهم.

ولهذا قال لهم نبيهم عليه السلام: ﴿وَالَّذِينَ تَعُوذَ أَهَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَنْقُورِ أَعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَ نَكْمٌ بَيْنَهُ مِنْ رَبِّكُمْ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةٌ فَذُرُّوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمْسُوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ آيَةِ ﴿٧٣﴾ وَأَذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِنْ سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا فَاذْكُرُوا آيَةَ اللَّهِ وَلَا تَمْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٧٤﴾﴾ [الأعراف: ٧٣-٧٤].

وفي هذه الآيات يذكرهم نبيهم بما كان من أمر سلفهم، إذ كنتم خلفاء من قوم عاد، لتعتبروا بما كان من أمرهم، وتعملوا بخلاف عملهم، وأباح لكم هذه الأرض تبون في سهولها القصور، وتنتحون من الجبال بيوتاً فارهين، أي: حاذقين في صنعتها وإتقانها وإحكامها، فقابلوا نعمة الله بالشكر والعمل الصالح، والعبادة له وحده لا شريك له، وإياكم ومخالفته، والعدول عن طاعته، فإن

بك وبمن معك من أتباعنا، وزجرنا الطير بأننا سيصيننا بك وبهم المكاره^(١).

والقوم لشقاوتهم وخبيثهم نسبوا ما يصيبهم من المكاره والمساوي إلى صالح وأصحابه وهو أبعد الناس عنها، فهم أهل الصلاح، ودينهم سبب لجلب الخيرات لا المصائب، وقد نسوا أنهم إنما يؤخذون بجرائرهم وسوء أعمالهم.

وقد أجابهم صالح عليه السلام كما في قوله تعالى: ﴿قَالُوا أَطَّيَّرْنَا بِكَ وَيَمِّنُ مَعَكَ قَالِ طُغْرِكُمْ عِنْدَ اللَّهِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ ﴿٧٤﴾﴾ [النمل: ٤٧].

قال عبدالله بن عباس: «طُغْرِكُمْ»: مصائبكم^(٢).

والمعنى: عند الله علم بما يصيبكم من المكاره والمصائب، فكل ذلك بقضائه وقدره لا حسب تطيركم وتشاؤمكم^(٣).

وقوله: ﴿بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ﴾ أي: تبتلون وتختبرون، أطيعون فتجدون الجزيل من الثواب، أم تعصون فيحل عليكم العقاب^(٤).

ثالثاً: ثمود لا تعتبر بما حاق بسلفها قوم عاد:

(١) جامع البيان، ١٩/١١.

(٢) أخرجه الطبري في تفسيره ١٩/١١.

(٣) انظر: جامع البيان، الطبري ١٩/١١، مفاتيح الغيب، الرازي ٢٤/١٢.

(٤) انظر: جامع البيان، الطبري ١٩/١١.

عاقبة ذلك وخيمة^(١).

تشرب ما تشربه قبيلة معجزة، وكانوا يحلبونها في يوم شربها قدر ما يكفيهم جميعهم ويقوم لهم مقام الماء، وهذا أيضًا معجزة.

وقيل: إن سائر الوحوش والحيوانات كانت تمتنع من شرب الماء في يوم شرب الناقة، وتشرب الحيوانات الماء في غير يوم الناقة.

وهذا أيضًا معجزة، وإنما أضافها إلى الله تعالى في قوله ﴿هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ﴾ على سبيل التفضيل والتشريف، كما يقال: بيت الله.

وقيل: لأن الله تعالى خلقها بغير واسطة ذكر وأنثى.

وقيل: لأنه لم يملكها أحد إلا الله تعالى. وقيل: لأنها كانت حجة الله على قوم صالح.

﴿فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ﴾ يعني: فذروا الناقة تأكل العشب من أرض الله، فإن الأرض لله والناقة أيضًا لله وليس لكم في أرض الله شيء، لأنه هو الذي أنبت العشب فيها ﴿وَلَا تَمْسُوهَا يُسُوءَ﴾ يعني: ولا تطردوها ولا تقربوها بشيء من أنواع الأذى ولا تعقروها ﴿فَيَأْخُذْكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ يعني: بسبب عقرها وأذاها^(٢).

وذكر الله سبحانه وتعالى بأن صالحًا أخاهم يقول تعالى: ﴿وَالِكِ تَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَنْقُورِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ [الأعراف: ٧٣]؛ لأن ثمود قبيلة.

و﴿أَخَاهُمْ صَالِحًا﴾ يعني: في النسب لا في الدين ﴿قَالَ يَنْقُورِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ وهذا قول نبيهم صالح عليه السلام حين أرسله الله تعالى إليهم: يا قوم وحدوا الله تعالى ولا تشركوا به شيئًا فما لكم من إله يستحق أن يعبد سواه ﴿قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ يعني:

جاءتكم حجة من ربكم وبرهان على صدق ما أقول وأدعو إليه من عبادة الله تعالى ولا تشركوا به شيئًا وعلى التصديق بأني رسول الله إليكم، ثم فسر تلك البينة فقال: ﴿هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةٌ﴾ يعني: علامة على صدقي.

ووجه نسبة هذه الناقة لله سبحانه وتعالى، وكون الناقة آية على صدق سيدنا صالح عليه السلام ومعجزة له، خارقة للعادة؛ لأنها خرجت من صخرة في الجبل، لا من ذكر ولا من أنثى، مع كمال خلقها. وقيل: لأنها كان لها شرب يوم، ولجميع قبيلة ثمود شرب يوم.

وهذا من المعجزات أيضًا؛ لأن ناقة

(٢) لباب التأويل، الخازن، ٢ / ٢٢٠.

(١) النكت والعيون، ٢ / ٢٣٥.

ثانياً: من صفات قوم ثمود:

١. الشك المريب.

من مظاهر معاداة الرسل من قبل أقوامهم؛ الترفع عن أفراد الله تعالى بالعباد وعدم توحيده، فقد كانت ثمود شبيهة بنظيراتها من الأمم التي سبقتها التي استنكفت إقرار تفرد الله تعالى بالعبادة تكبراً وتجبراً، وأنهم لن يتركوا ما كانوا عليه من عبادة الأصنام التي ورثوها من آبائهم.

قال سبحانه وتعالى: ﴿قَالُوا يَصْلِحْ قَدْ كُنْتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا أَتَنْهَمُنَا أَنْ تَعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٦٢﴾﴾ [هود: ٦٢].

أي: كنا نرجو أن تكون فينا سيِّداً، وقيل: كنا نرجو أن تعود إلى ديننا^(١).

ويقول أبو السعود: كنا نرجو منك لما كنا نرى منك من دلائل السداد ومخايل الرشاد أن تكون لنا سيِّداً ومستشاراً في الأمور.

وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: «فاضلاً خيراً نقدمك على جميعنا».

وقيل: كنا نرجو أن تدخل في ديننا وتوافقنا على ما نحن عليه^(٢).

٢. الظلم.

دمرهم الله تعالى عاقبة لظلمهم.

قال تعالى: ﴿فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مُكْرِمِهِمْ أَنَا دَمَرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥١﴾ فَبِئْسَ مَا تَكُونُ يَوْمُكُمْ فَأَخَوْتُمْ أَيَّمَا ظَلَمْتُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥٢﴾ وَأَنْجَيْنَا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿٥٣﴾﴾ [النمل: ٥١-٥٣].

ذكر جلّ وعلا في هذه الآيات الكريمة، ثلاث أمور:

الأول: أنه دمر جميع قوم صالح، ومن جملتهم تسعة رهط الذين يفسدون في الأرض ولا يصلحون، وذلك في قوله: ﴿أَنَا دَمَرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ﴾، أي: وهم قوم صالح ثمود، ﴿فَبِئْسَ مَا تَكُونُ يَوْمُكُمْ فَأَخَوْتُمْ أَيَّمَا ظَلَمْتُمْ﴾، أي: خالية من السكان لهلاك جميع أهلها، ﴿بِئْسَ مَا تَكُونُ يَوْمُكُمْ فَأَخَوْتُمْ أَيَّمَا ظَلَمْتُمْ﴾، أي: بسبب ظلمهم الذي هو كفرهم وتمردهم وقتلهم ناقة الله التي جعلها آية لهم، وقال بعضهم: ﴿فَأَخَوْتُمْ أَيَّمَا ظَلَمْتُمْ﴾، أي: ساقطاً أعلاها على أسفلها.

الثاني: أنه جلّ وعلا جعل إهلاكه قوم صالح آية، أي: عبرة يتعظ بها من بعدهم، فيحذر من الكفر، وتكذيب الرسل، لثلاث ينزل به ما نزل بهم من التدمير، وذلك في قوله: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾.

الثالث: أنه تعالى أنجى الذين آمنوا وكانوا يتقون من الهلاك والعذاب، وهو نبيّ الله صالح ومن آمن به من قومه، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَأَنْجَيْنَا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾

(١) الكشف والبيان، الثعلبي ١٧٦/٥.

(٢) إرشاد العقل السليم، ٢٢١/٤.

وَكَانُوا يَنْقُوتُ ﴿٣٢﴾

وهذه الأمور الثلاثة التي ذكرها جل وعلا هنا، جاءت موضحة في آيات أخر.
٣. الاختصام.

قال سبحانه وتعالى: ﴿فَإِذَا هُم بِرَيْكَانٍ يَخْتَصِمُونَ﴾ [النمل: ٤٥].

ولم يبين هنا خصومة الفريقين، ولكنه بين ذلك في سورة «الأعراف»، في قوله تعالى: ﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِن قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِمَن ءَامَنَ مِنْهُمْ أَنتَ لَمَوْتٌ أَنتَ صَاحِبُ مَرْسَلٍ مِّن رَّبِّهِ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ ﴿٧٥﴾ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي ءَامَنتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ﴿٧٦﴾﴾ [الأعراف: ٧٥-٧٦].

فهذه خصومتهم، وأعظم أنواع الخصومة: الخصومة في الكفر والإيمان^(١).
٤. التكذيب.

ورد ذكر تكذيب ثمود بالبعث في موضعين:

الأول: قرن فيه مع عاد، قال تعالى: ﴿كَذَبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌ بِالْقَارِعَةِ ﴿٤﴾﴾ [الحاقة: ٤].

الثاني: هو قوله تعالى: ﴿فَمُرُّشَانَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءٰخَرِينَ ﴿٣٦﴾ فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهِ عِندَهُ ؕ أَفَلَا تَنْقُونَ ﴿٣٧﴾﴾ وَقَالَ الْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِإِيقَافِ الْآخِرَةِ

وَأُتْرِفْنَهُمْ فِي الْحَيَوةِ الدُّنْيَا مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [المؤمنون: ٣١-٣٣].

ذكر ابن جرير الطبري وآخرون أن المعنيون بهذا الخطاب هم ثمود قوم صالح؛ لأن القصة شبيهة بقصتهم، فهم الذين أهلكهم الله بالصيحة، وقد ختمت هذه القصة بذكر هلاك المذكورين فيها بالصيحة^(٢).

فقد وصف الله تعالى الملاء الذين تصدروا المعارضة صالح عليه السلام بثلاث أوصاف قبيحة: الكفر بالله، والتكذيب بالبعث، والترف^(٣).
٥. الترف.

المترف مع ما يترتب عليه سلوكه من الإنكباب على الدنيا والانغماس في الشهوات، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِإِيقَافِ الْآخِرَةِ وَأُتْرِفْنَهُمْ فِي الْحَيَوةِ الدُّنْيَا مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ ﴿٣٣﴾﴾

وقوله: ﴿وَكَذَّبُوا بِإِيقَافِ الْآخِرَةِ﴾ أي: كذبوا ببقاء ما فيها من الحساب والجزاء.

والمراد: بيان تكذيبهم بالبعث بالكلية

(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ١٠/١٨، معاني القرآن وإعرابه، الزجاج ٤/١١، والتسهيل، ابن جزي ٣/٥١.

(٣) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ١٢/٢٣.

(١) أضواء البيان، الشنقيطي، ١٣/٢.

كما تدل عليه الآيات (١).

وقد جاء تفصيل تكذيبهم بالبعث في الآيات التي بعد هذه، وذلك ضمن المسائل التي أنكروها على صالح عليه السلام، فبعد أن أنكروا عليه ادعاء الرسالة مع كونه بشراً أنكروا ما يعدهم به من البعث والنشور بعد الموت، فقالوا مخاطباً بعضهم بعضاً: ﴿أَيُّدْرُكُكُمْ إِنَّا إِنَّمَا مَثَّمُ وَكُنْتُمْ تَرَايَا وَعَظَلْنَا أَنْكُمْ تُخْرَجُونَ﴾ [المؤمنون: ٣٥].

وهذا الاستفهام على جهة الاستهزاء والاستبعاد (٢).

والمعنى: أيعدكم صالح أنكم بعد موتكم، ومصيركم تراباً، أي: قبوركم، وعظماً قد ذهب لحوم أجسادكم وأعصابها، أنكم مخرجون أحياء كما كنتم (٣).

ثم لم يقتنعوا بالاستبعاد عن طريق الاستفهام حتى قرئوه بالاستبعاد عن طريق الأخبار قالوا ﴿هَيَاتَ هَيَاتَ لِمَا تُوْعَدُونَ﴾ [المؤمنون: ٣٦].

أي: بعيد بعيد ما توعدون من أنكم محيون بعد مماتكم (٤).

ثم أكدوا إنكارهم للبعث بذكر تصورهم

- (١) انظر الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٢/١٢٤، أنوار التنزيل، البيضاوي ٢/٤٢٤.
- (٢) انظر: فتح القدير، الشوكاني ٣/٤٨٣، روح المعاني، الألوسي ١٨/٣٢.
- (٣) انظر: النكت والعيون، الماوردي ٤/٥٣، روح المعاني، الألوسي ١٨/٣٢.
- (٤) انظر: النكت والعيون ٤/٥٣، معالم التنزيل، البغوي ٥/٤١٧.
- (٥) انظر: جامع البيان، الطبري ١٠/١٨، معالم التنزيل، البغوي ٥/٤١٧.
- (٦) تفسير السمرقندي ٢/٤١٤، النكت والعيون، الماوردي ٤/٥٤.
- (٧) انظر: النكت والعيون، الماوردي ٤/٥٣، روح المعاني، الألوسي ١٨/٣٢.
- (٨) انظر: النكت والعيون ٤/٥٣، معالم التنزيل، البغوي ٥/٤١٧.
- (٩) انظر: جامع البيان، الطبري ١٠/١٨، معالم التنزيل، البغوي ٥/٤١٧.
- (١٠) تفسير السمرقندي ٢/٤١٤، النكت والعيون، الماوردي ٤/٥٤.

للحياة، فقالوا: ﴿إِن هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾ [المؤمنون: ٣٧].

أي: ما الحياة إلا هذه الحياة التي نحن نحياها في الدنيا، لا الحياة الآخرة التي وعدنا بها صالح بعد البعث (٥).
وجملة ﴿نَمُوتُ وَنَحْيَا﴾ مفسرة لما ادعاه من أن الحياة هي الحياة الدنيا (٦).
وقد ذكر في معناها أقوال:

فقليل معناها: يموت بعضنا ويولد بعضنا، وهكذا (٧).

وقيل: يموت الآباء ويحيا الأبناء (٨).
وقيل: يموت قوم ويحيا قوم (٩).
وقيل: بمعنى نحيا ونموت ولا نبعث (١٠).
وهذه الأقوال متقاربة في المعنى، غير متعارضة، فهم لا يقصدون بقولهم ﴿نَمُوتُ وَنَحْيَا﴾ إنهم يموتون ثم يعثون يوم القيامة، فهم منكرون للبعث إنكاراً شديداً،

- (١) انظر الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٢/١٢٤، أنوار التنزيل، البيضاوي ٢/٤٢٤.
- (٢) انظر: فتح القدير، الشوكاني ٣/٤٨٣، روح المعاني، الألوسي ١٨/٣٢.
- (٣) انظر: النكت والعيون، الماوردي ٤/٥٣، روح المعاني، الألوسي ١٨/٣٢.
- (٤) انظر: النكت والعيون ٤/٥٣، معالم التنزيل، البغوي ٥/٤١٧.
- (٥) انظر: جامع البيان، الطبري ١٠/١٨، معالم التنزيل، البغوي ٥/٤١٧.
- (٦) تفسير السمرقندي ٢/٤١٤، النكت والعيون، الماوردي ٤/٥٤.
- (٧) انظر: النكت والعيون، الماوردي ٤/٥٣، روح المعاني، الألوسي ١٨/٣٢.
- (٨) انظر: النكت والعيون ٤/٥٣، معالم التنزيل، البغوي ٥/٤١٧.
- (٩) انظر: جامع البيان، الطبري ١٠/١٨، معالم التنزيل، البغوي ٥/٤١٧.
- (١٠) تفسير السمرقندي ٢/٤١٤، النكت والعيون، الماوردي ٤/٥٤.

فجعلوا صالحًا عليه السلام مفتريًا على الله تعالى بسبب دعوته لهم إلى التوحيد، والإيمان بالبعث^(٢)، وصرحوا بأنهم لن يؤمنوا به، أو أنهم فعلوا ذلك إشارة على الأنبياء بالسكوت وإطباق الأفواه استبشاعًا لما قالوه من دعوى النبوة^(٣)، أو أنهم أشاروا بأيديهم إلى الاستهزاء وما نطقت به من قولهم: ﴿إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ﴾ [إبراهيم: ٩].

تنبهًا على أن هذا هو جوابهم، ولا جواب عندهم سواه، تبيسًا لهم من التصديق^(٤). وذلك ما قاله المستكبرون من قوم ثمود للمستضعفين الذين آمنوا بصالح عليه السلام.

قال تعالى: ﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتَضَعُّوا لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحًا مُرْسَلٌ مِنْ رَبِّهِ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: ٧٥].

وقولهم: ﴿اتَعْلَمُونَ﴾ استفهام على معنى الاستهزاء والاستخفاف^(٥). فالرسل في نطاق دعوتهم إلى التوحيد

وقد استمروا في تأكيد إنكارهم للبعث واستحالته بما يدل عليه قولهم الجازم ﴿وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾، ثم ختموا جدالهم بقولهم: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [المؤمنون: ٣٨].

بذلك أحبوا ما هم عليه من الضلال على دعوة سيدنا صالح عليه السلام للهدى والإيمان، فحقت عليهم كلمة العذاب فاتاهم هلاك الصيحة، كما قال الحق عز وجل: ﴿فَأَخَذْتَهُمُ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ فَعَمَلَتْهُمْ غُشًّا فَبَعَدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [المؤمنون: ٤١].

٦. الاستهزاء.

ومما اتصف به قوم ثمود الاستهزاء بالرسل وإيدائهم، وما صاحب ذلك من الهزء والوقاحة.

قال تعالى: ﴿قَالُوا يَصْلِحُ قَدْ كُنْتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا أَتَنْهَانَا أَنْ نَعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَإِنَّا لَفِي شَكِّ مِمَّا نَدْعُونَ إِلَيْهِ مُرِيبٍ﴾ [هود: ٦٢].

أي: أنهم وضعوا أيديهم على أفواههم تعجبًا مما قالته الرسل على سبيل الاستهزاء كحال من غلبه الضحك^(١).

﴿افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [المؤمنون: ٣٨].

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ٨/ ١٣، المحرر الوجيز، ابن عطية ٣/ ٣٢٦.

(٢) انظر: فتح قدير، الشوكاني ٣/ ٤٨٣.

(٣) انظر: المحرر الوجيز، ابن عطية ٣/ ٣٢٦، التسهيل، ابن جزي ٢/ ١٣٨.

(٤) انظر: الكشاف، الزمخشري ٢/ ٢٩٥، مفاتيح الغيب، الرازي ١٠/ ١٩.

(٥) المحرر الوجيز، ابن عطية ٢/ ٤٢٣.

الناس^(٤) (٥).

وردت آيات مختلفة تتحدث عن استكبار قوم ثمود، فقد وصف الله سبحانه تعالى ملاً منهم بصفة الاستكبار فقال تعالى: ﴿قَالَ أَمَلَأَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتَضَعِفُوا لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ أَنْتَ لَمُوتٌ أَنْتَ صَاحِبُكُمْ رَسُولٌ مِّن رَّبِّهِمْ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ ﴿٧٥﴾ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي ءَامَنْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ﴿٧٦﴾﴾ [الأعراف: ٧٥-٧٦].

والمستكبرون تعدد أنواعهم بحسب تكبرهم:

✽ التكبر على الله تعالى.

وذلك بعدم الطاعة والترفع عن عبادته، ورفض أوامره ونواهيه، التي بأتيهم بها الأنبياء والرسل في دعوتهم، وهذا أكثر ما واجه الأنبياء وهو مقرون بالتكذيب والكفر ممثلاً في رفض رسالاتهم.

✽ التكبر على الرسل.

وذلك يتمثل فيعدم الخضوع لهم بأسباب متعددة؛ لأنهم بشر، لأنهم ضعفاء.

✽ التكبر على الناس.

(٤) بطلان الشرك بينون بطلان اتخاذ الأصنام آلهة، ويظهرون ضعفها وعجزها عن جلب نفع أو دفع ضرر؛ وهذا في نظر المشركين مسببة شنيعة، وطعن قادح في آلهتهم التي يعتقدون أنها جالبة الخيرات، ودافعة الشرور والأضرار، فيردون على هذا بالاستهزاء بالرسول، ويسلطون عليهم ألواناً من الأذى، وينال أتباعهم قسطاً من ذلك.

ثالثاً: استكبار قوم ثمود:

الكبر والتكبر والاستكبار من مشتقات مادة (كبر) وهي متقاربة في المعنى^(١)، فالكبر ألصق بالخلق الباطني، وهو: «خلق في النفس دال على الاسترواح والركون إلى رتبة فوق المتكبر عليه»^(٢)، فمتى اتصف المرء بهذا الخلق يقال: في نفسه كبر، فإذا ظهر كعمل صادر عن الجوارح كان تكبراً واستكباراً^(٣).

وبهذا فالكبر شعور باطني يستشعره المتكبر، وعندما يصبح هذا الشعور سلوكاً ظاهراً يقال لصاحبه: متكبر مستكبر، وجاء في حديثه صلى الله عليه وسلم بيان لحقيقة الكبر المتوعد عليه بالعقاب في قوله صلى الله عليه وسلم: (الكبر بطلان الحق، وغمط

(١) انظر: المفردات، الراغب الأصفهاني ص ٤٢١.

(٢) تصفية القلوب، يحيى الذماري ص ١٨٧.

(٣) إحياء علوم الدين، ٢/ ٣٦٣.

(٤) بطلان الشرك: رده ودفعه وإنكاره ترفعاً وتجبراً. وغمط الناس: احتقارهم.

انظر: المنهاج شرح صحيح مسلم، النووي ٩٠/٢. أخرج مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب تحريم الكبر، ٩٣/١، رقم ١٤٧، عن ابن مسعود رضي الله عنه.

رابعاً: موقف ثمود من معجزة رسولهم عليه السلام:

كان موقف ثمود من معجزة رسولهم وآياته هو الإعراض والتكذيب.

يقول تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْحِجْرِ الْمُرْسَلِينَ ﴿٨٠﴾ وَأَيَّدْنَاهُمْ بِمَا بَدَأْنَا فَكَانُوا عَنَّا مُعْرِضِينَ ﴿٨١﴾﴾ [الحجر: ٨٠-٨١].

وقد دلت الآيات على تكذيبهم وإعراضهم عن الآيات التي أظهرها الله تعالى لهم تصديقاً لنيبه عليه السلام، دلالة على عظمته ووحدانيته. وقد أوتي سيدنا صالح عليه السلام الناقة آية، وقد جمعت آيات متعددة في إظهارها.

قال ابن الجوزي: «والمراد بالآيات الناقة، قال ابن عباس: كان فيها آيات، خروجها من الصخرة وذنو نتاجها عند خروجها، وعظم خلقها فلم تشبهها ناقة، وكثرة لبنها حتى كان يكفيهم جميعاً»^(٤).

والأولى عدم تخصيص الآيات بالناقة فقط، بل تحمل على الناقة وغيرها، وهو ما جنح إليه بعض المفسرين.

قال الطبري في تفسير الآية: «يقول: وأريناهم أدلتنا وحججنا على حقيقة ما بعثنا به إليهم رسولنا صالحاً»^(٥).

وهذه الآيات يدخل فيها الناقة دخولاً

كل الرسل ووجهوا بهذا النوع من التكبر، فكان أهل الشرك والكفر يستعظمون أنفسهم ويرون أنهم فوق أتباع الرسل الذين عادة ما يكونوا من المستضعفين.

يقول سبحانه وتعالى: ﴿قَالُوا أَتُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَذْلُونَ ﴿١١١﴾﴾ [الشعراء: ١١١]. وقالوا: ﴿وَمَا زَنَّاكَ أَتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادُوا أَنْ كَفُرُوا﴾ [هود: ٢٧].

وقد وصف الله سبحانه وتعالى قوم ثمود بالطغيان فقال تعالى: ﴿فَأَنَّا ثَمُودُ فَأَهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ ﴿٥﴾﴾ [الحاقة: ٥].

فقد روي عن قتادة: بأن الطاغية تعني الطغيان وتجاوز الحد في اغتراف المعاصي^(١).

ويقول ابن كثير في تفسير قوله سبحانه وتعالى: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوِيهَا ﴿١١﴾﴾ [الشمس: ١١]: «كذبوا رسولهم بسبب ما كانوا عليه من الطغيان والبغي»^(٢).

وذكر البيضاوي أن قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبَلَدِ ﴿١١﴾ فَأَكْرَأُوا فِيهَا الفساد ﴿١٣﴾﴾ [الفجر: ١١-١٢] صفةً للمذكورين جميعاً: عاد وثمود وفرعون^(٣).

(١) أخرجه الطبري في تفسيره ٢٩/١٤.

(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٤/٥٥٢.

(٣) أنوار التنزيل، ٢/٥٩٤.

(٤) زاد المسير ٤/٣٠١.

(٥) جامع البيان، الطبري ٧/١٤.

أولياً؛ لأنها ذكرت في القرآن الكريم، ولكن عدم ذكر غيرها لا يدل على أنها هي الآية الوحيدة التي أعطيت لسيدنا صالح عليه السلام حتى يضطر لحمل الآيات على الناقة فقط.

فهذه الآيات تشتمل على الحجج والبراهين الكونية الدالة على عظمة الله تعالى ووحدانيته، ولا شك أن صالحاً عليه السلام قد ذكر قومه بهذه البراهين والآيات وقد تكون الآيات التي كذبوا بها غير هذه الآيات.

قال البيضاوي: ﴿وَمَا آيَاتُهُمْ مَّا يَتَّبِعُونَ فَكَأَنَّهُمْ عَنَّا مُعْرِضِينَ﴾ [الحجر: ٨١] يعني: آيات الكتاب المنزل على نبيهم أو معجزاته المتضمنة في الناقة من سقيها وشربها وغيره، أو ما نصب لهم من الأدلة^(١).

وقد سأل قوم ثمود سيدنا صالح عليه السلام معجزة يخرجها لهم يريدونها، فأشاروا على صخرة بجوارهم، وقالوا له: أخرج لنا من هذه الصخرة ناقة طويلة عشاء، وأخذوا يصفون الناقة المطلوبة ويعددون صفاتها، حتى يعجز صالح عن تحقيق طلبهم، فقال لهم صالح: رأيتم إن أجبتكم إلى ما سألتم أتؤمنون بي وتصدقونني وتعبدون الله الذي خلقكم؟ فقالوا له: نعم، وعاهدوه على ذلك، فقام صالح عليه السلام

وصلى لله سبحانه، ثم دعا ربه أن يجيبهم إلى ما طلبوا. وكانت الآية التي أوتيتها سيدنا صالح عليه السلام هي الناقة، قال سبحانه وتعالى ﴿قَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةٌ فَذُرُّوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ الْعَذَابِ﴾ [الأعراف: ٧٣].

وكانت الناقة بطلب من قومه ولم يأت بها من تلقاء نفسه؛ وذكر ابن عطية عن بعضهم أنه جاء بها من تلقاء نفسه من غير طلب^(٢)، والرأي الأول هو الأرجح والأصوب كما جاء في القرآن قوله تعالى: ﴿قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَخَّرِينَ﴾ [١٥٣] ﴿مَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا فَأَبِئَازِ بِنَايَ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [الشعراء: ١٥٣-١٥٤].

وكذلك جاء في الحديث ما يصدق رأي طلبهم الناقة، فعن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: لما مر النبي صلى الله عليه وسلم بالحجر قال: (لا تسألوا الآيات، وقد سألتها قوم صالح، فكانت -أي: الناقة- ترد من هذا الفجج^(٣)، وتصدر من هذا الفجج، فعتوا عن أمر ربهم فمقروها)^(٤).

(٢) انظر: المحرر الوجيز ٢/ ٤٢١.
(٣) الفجج: هو الطريق الواسع بين جبلين. مختار الصحاح ص ٤٠١.
(٤) أخرجه أحمد في مسنده، ٦٦/٢٢، رقم ١٤١٦٠، والحاكم في المستدرک، كتاب التفسير، سورة الأعراف، ٣٥١/٢، رقم ٣٢٤٨.

(١) أنوار التنزيل، ١/ ٥٣٤.

العلماء: إن في الناقة المذكورة آيات جمة: كخروجها عشراء وبراء جوفاء من صخرة صماء، وسرعة ولادتها عند خروجها، وعظمتها حتى لم تشبهها ناقة، وكثرة لبنها حتى يكفيهم جميعاً، وكثرة شربها؛ كما قال تعالى: ﴿لَهَا شَرِبٌ وَلَكُمْ شَرِبٌ يَوْمَ مَعْلُومٍ﴾ [الشعراء: ١٥٥].

وقال: ﴿وَيَنْبَغُ أَنْ أَلْمَأَ قَسَمَةُ يَنْبَغُ كُلِّ شَرِبٍ مُخَضَّرٌ﴾ [القمر: ٢٨] (٣).

روى الإمام أحمد عن جابر رضي الله عنه قال: لما مر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالحجر قال: (لا تسألوا الآيات وقد سألتها قوم صالح، فكانت ترد من هذا الفج وتصدر من هذا الفج، ففتوا عن أمر ربهم فعقروها، فكانت تشرب ماءهم يوماً ويشربون لبنها يوماً، فعقروها، فأخذتهم صيحة أهدم الله عز وجل من تحت أديم السماء منهم إلا رجلاً واحداً كان في حرم الله عز وجل)، قيل: من هو يا رسول الله قال: (هو أبو رغال؛ فلما خرج من الحرم أصابه ما أصابهم) (٤).

ويعلق سيد قطب رحمه الله تعالى على آية الأعراف عند قوله تعالى: ﴿قَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ هَذِهِ نَاقَةٌ اللَّهِ لَكُمْ آيَةٌ﴾ فيقول: «والسياق

وذكر العلماء أن قوم صالح هم الذين حددوا نوع الآية أن تكون ناقة، وكيفية خروجها وشكلها وأن تخرج أمام أعينهم من الصخرة في قبيلتهم

وأما صفة الناقة التي جعلها الله عز وجل آية مبصرة لثمود، فقال الله تعالى: ﴿وَأَيْنَأْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبِصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا﴾ [الإسراء: ٥٩].

وقال تعالى: ﴿قَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ هَذِهِ نَاقَةٌ اللَّهُ لَكُمْ آيَةٌ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرضِ اللَّهِ وَلَا تَمْسُوهَا يَسُوءَ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ آيَةٍ﴾ [الأعراف: ٧٣].

قوله تعالى: ﴿وَأَيْنَأْنَهُمْ مَا بَدَأْنَا فَاكُونُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾ [الحجر: ٨١].

ذكر تعالى في هذه الآية الكريمة أنه أتى أصحاب الحجر آياته فكانوا عنها معرضين. والإعراض: الصدود عن الشيء والإضراب عنه (١) وعدم الالتفات إليه؛ كأنه مشتق من العرض بالضم وهو الجانب؛ لأن المعرض لا يولي وجهه بل يشنى عطفه ملتفتاً صاذاً (٢).

ولم يبين جل وعلا هنا شيئاً من تلك الآيات التي آتاهم، ولا كيفية إعراضهم عنها، ولكنه بين ذلك في مواضع أخرى، فبين أن من أعظم الآيات التي آتاهم: تلك الناقة التي أخرجها الله لهم، بل قال بعض

وحسن إسناده ابن حجر في الفتح ٦ / ٣٨٠.

(١) التوقيف، ١ / ٧٦.

(٢) انظر: لسان العرب، ٧ / ١٦٥.

(٣) التحرير والتنوير، ١٦ / ١١٧.

(٤) سبق تخريجه قريباً.

هنا - لأنه يستهدف الاستعراض السريع للدعوة الواحدة ولعاقبة الإيمان بها وعاقبة التكذيب - لا يذكر تفصيل طلبهم للخارقة، بل يعلن وجودها عقب الدعوة، وكذلك لا يذكر تفصيلاً عن الناقة أكثر من أنها بيّنة من ربهم، وأنها ناقة الله، ومن هذا الإسناد نستلهم أنها كانت ناقة غير عادية، أو أنها أخرجت لهم إخراجاً غير عادي؛ مما يجعلها بيّنة من ربهم، ومما يجعل نسبتها إلى الله ذات معنى، ويجعلها آية على صدق نبوته. ولا نزيد على هذا شيئاً مما لا يرد ذكره من أمرها في هذا المصدر المستيقن، وفيما جاء في هذه الإشارة كفاية عن كل تفصيل آخر^(١).

وقد أخذ سيدنا صالح عليه السلام على قومه العهد بعد خروج الناقة. وبعد أن أخرج الله لهم الناقة بالكيفية التي طلبوها طلب منهم صالح عليه السلام الوفاء بعهدهم ومواثيقهم التي قطعوها على أنفسهم في أمور: منها: أولاً: الإيمان بالله جل جلاله ونبذ عبادة الأوثان والتصديق برسالة صالح.

قال سبحانه وتعالى: ﴿وَالَّذِينَ تَتَّبِعُوا خَلْقَهُمْ فَقَالُوا لَوْ لَمْ نُطِيعِ اللَّهَ وَالنَّبِيَّ كُنَّا لَمَذْمُومِينَ أَلَيْسَ اللَّهُ بِذِي فَضْلٍ عَلَى الْبَشَرِ لَئِن كُنَّا لَمَذْمُومِينَ إِذْ قُلْنَا لِلَّذِينَ آمَنُوا اسْمِعُوا مَقَالَي هَذِهِ نَقَاتُهُ لَكُمْ لِيَتَذَكَّرَ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ [الأنعام: ١١٣].

﴿فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمْسُوهَا يُسُوءَ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [الأعراف: ٧٣] فاقتران الدعوة إلى التوحيد بالإشارة إلى الناقة يدل على أنه طلب منهم الإيمان عقب مجيئها.

ثانياً: تقسيم الماء بينهم وبين الناقة. فلقوم صالح عليه السلام يوم، وللناقة يوم، في يومهم لا ترد الناقة الماء فيأخذون ما يكفيهم ويكفي بهائمهم، وفي يوم الناقة لا يريدون الماء.

وفي ذلك يقول تعالى: ﴿قَالَ هَذِهِ نَاقَةٌ لَهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَعْلُومٍ﴾ [الشعراء: ١٥٥] وقوله تعالى: ﴿وَنَبِّئْتَهُمْ أَنَّ الْمَاءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ كُلُّ شِرْبٍ مُحْتَضَرٌ﴾ [القمر: ٢٨].

كما حذرهم صالح عليه السلام من نقص حصة الناقة من الماء.

قال تعالى: ﴿فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيِيهَا﴾ [الشمس: ١٣].

قال ابن كثير في تفسير هذه الآية: «أي: احذروا ناقة الله أن تمسوها بسوء ولا تعتدوا عليها يوم سقياها، فإن لها شرب يوم ولكم شرب يوم معلوم»^(٢).

ثالثاً: أن لا تمس الناقة بأي سوء. وقد حذرهم من مساس الناقة بسوء تحذيراً صارماً واضحاً، ونبههم بأنه يستدعي العذاب العاجل.

قال تعالى حكاية عن سيدنا صالح عليه

(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم ٤/ ٥٥٢.

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب ٣/ ١٣١٣.

وكذلك عتوا في الضلال والعتاد وضاقوا ذرعاً بالناقة ويوم شربها، وكبر عليهم رؤيتها تجوب وديانهم وحقولهم شاهدة على قدرة الله سبحانه وتعالى.

قال تعالى: ﴿فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتُّوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعَدْغٌ مَكْذُوبٌ﴾ [هود: ٦٥].

وقال تعالى: ﴿فَعَقَرُوهَا فَاصْبَحُوا نَدِيمِينَ﴾ [١٥٧] فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ [١٥٨]

[الشعراء: ١٥٧-١٥٨].

والربط بين عقر الناقة وهلاك القوم (بالفاء) في هذه الآيات كلها يدل دلالة واضحة على أن عقرها كان السبب المباشر لهلاكهم (٢).

والعقر: ضرب قوائم البعير أو الشاة بالسيف (٣).

وأطلق العقر مكان النحر من باب إطلاق اسم المسبب على السبب.

وعلى الرغم من استجابة سيدنا صالح عليه السلام لقومه في إخراج الناقة لهم، وتحذيره إياهم، فإنهم كانوا قومًا مفسدين، فلم يستجيبوا لنداء الله تعالى ولا لتحذير رسوله فعقروا هذه الناقة. ويأتي البيان الإلهي ليصف هذا التعدي على حدود الله

(٢) انظر: أسباب هلاك الأمم، سعيد سيل، ص ٤٠٣.

(٣) انظر: لسان العرب ٥/ ٣٠٣٥.

السلام: ﴿وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ أَعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةٌ فَذُرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ آيَةٍ﴾ [الأعراف: ٧٣].

فقد اقتصر النهي في هذه الآيات عن مس الناقة بسوء فلم ينههم عن عقرها أو قتلها. وفي ذلك لطيفة عبر عنها ابن عاشور بقوله: «وأنيط النهي بالمس بالسوء، لأن المس يصدق على أقل اتصال شيء بالجسم فكل ما ينالها مما يراد منه السوء فهو منهي عنه» (١).

وقد كان خروج الناقة ابتلاء لثمود كما قال تعالى: ﴿إِنَّا مَرْسَلْنَا النَّاقَةَ فَبَنَنَّا لَهُمْ فَارْتَقِبْهُمْ وَاصْطَبِرْ﴾ [القمر: ٢٧].

فهي ابتلاء لثمود أيؤمنون بصالح عليه السلام كما وعدوه بذلك؟ أم ينكصون ويكفرون، وكان الابتلاء عدم مساسهم بالناقة بسوء وتقسيم الشرب بينهم.

أما صالح فقد أمر أن ينتظر يرتقب ما يؤول إليه أمرهم بعد هذا الامتحان وأن يصبر عليهم حتى يأتي الفرج من الله. إلا أن قوم ثمود خسروا الامتحان ونكثوا العهد وأصروا على الكفر والتكذيب، وبذلك حكموا على أنفسهم باستحقاق العذاب،

(١) انظر: التحرير والتنوير ٩/ ٢٩١.

وعاقبة ذلك. لتأمل الآيات الثلاث الآتية:

١. ﴿فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعَدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ﴾ [هود: ٦٥].

٢. ﴿فَعَقَرُوهَا فَاصْبَحُوا نَدِيمِينَ﴾ [الشعراء: ١٥٧].

٣. ﴿فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ بِذُنُوبِهِمْ فَسَوَّاهَا﴾ [الشمس: ١٤].

فالآية الأولى تحدثت عن وعد صالح عليه السلام لهم بالعذاب جزاء فعلتهم، ثم تأتي الآية الثانية لتعبر عن ندمهم لأنهم أدركوا أن العذاب واقع لا محالة. أما الآية الثالثة فجاءت بالعذاب مباشرة.

﴿فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ﴾. إذن جاء التدرج الزمني للأحداث عبر الآيات الثلاث من الوعد بالعذاب.. إلى اقتراب هذا العذاب حيث لا ينفع الندم.

وأخيراً وقوع هذا العذاب، ومع أن هذه الآيات متباعدة من حيث النزول ومن حيث الترتيب في القرآن فقد جاءت متناسقة ومتدرجة وتعبر تعبيراً دقيقاً عن حقيقة هذه القصة.

وقد أسند العقير إلى قوم ثمود جميعاً مع أن الذي باشره شخص واحد منهم كما في قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَانِهَا﴾ [إذنبعت أشقنأ ١١] [الشمس: ١١-١٢].

وذلك لأنهم كلهم متواطئون راضون على عقرها.

قال الطبري رحمه الله: «عن رضى جميعهم قتلها قاتلها وعقرها من عقرها، ولذلك نسب التكذيب والعقر إلى جميعهم»^(١).

وقد سعى في قتل الناقة تسعة رجال من ثمود كانوا يحرضون من قتلها يدفعونه دفعاً. قال تعالى: ﴿فَأَدَاؤًا صَاحِبِمْ فَطَاعِنَ فَمَقَرَّ﴾ [القمر: ٢٩].

وبهذا فالقبيلة مشتركة في قتلها جميعاً لا ذلك الرجل العام^(٢)، ولا التسعة المفسدون.

قال الطبري رحمه الله تعالى: إن الذي عقر الناقة أشقى ثمود يسمى قدار بن سالف، وكان أحد التسعة المفسدين الذين قال تعالى فيهم: ﴿وَكَاثَ فِي الْمَدِينَةِ تَسْعَةَ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ﴾ [النمل: ٤٨].

وقد جاءت صفته في الحديث الصحيح الذي ذكره الإمام البخاري في صحيحه، عن عبد الله بن زمعة رضى الله عنه قال: خطب رسول الله صلى الله عليه وسلم فذكر الناقة

(١) جامع البيان ١٤/١٥.

(٢) العام: هو الشرير المفسد الخبيث. وقيل: القوى الشرس.

انظر: النهاية في غريب الحديث، ابن الأثير ٢٢٣/٣.

من الليل ليفتكوا به، فأرسل الله سبحانه وتعالى عليهم حجارة فقتلتهم قبل قومهم. فأحبط الله بذلك مخططات القوم الكافرين وخذعتهم، وأنقذ صالحًا من بين يدي من أرادوا به سوءاً^(٢).

وبقي قومه على إعراضهم وعدم رغبتهم في الاستجابة له، أخبرهم بما سيصيبهم من هلاك خلال ثلاثة أيام.

قال تعالى: ﴿فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتُّوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعَدُّ غَيْرُ مَكْدُوبٍ﴾ [هود: ٦٥].

وقال تعالى: ﴿وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جِثِيمِينَ﴾ [هود: ٦٧-٦٨].

فصاروا صرعى لا أرواح فيهم. ولم يفلت منهم أحدًا، لا صغير ولا كبير ولا ذكر ولا أنثى^(٣).

وذكر الذي عقرها فقال: (إذا انبعث أشقاها انبعث لها رجل عارم منيع في رهطه مثل أبي زمعة)^(١) الذي ظن أن منعه في قومه تحميه من العذاب الموعود به على عقر الناقة، فكانت جريمته هذه والتي ماله عليها قومه سببًا في إنزال الهلاك بهم، فأتاهم الله سبحانه وتعالى بعذاب الصيحة، فهي صيحة واحدة قطعت نياط قلوبهم وتركتهم أجسادًا هامدة. أما ولد الناقة فيقال: إنهم ذبحوه مع أمه، وقال آخرون: إنه دخل في صخرة فغاب فيها، والله أعلم.

قال تعالى: ﴿فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا يُصَلِّحُ اتِّبْنَا بِمَا نُوَدِّعُ إِنْ كُنْتُمْ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الأعراف: ٧٧].

فلما فعلوا ذلك وبلغ الخبر صالحًا فجاءهم وهم مجتمعون، فلما رأى الناقة بكى، وقال: ﴿تَمَتُّوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعَدُّ غَيْرُ مَكْدُوبٍ﴾ [هود: ٦٥].

خامسًا: قوم ثمود يسعون في قتل رسولهم:

فعزم بعدها التسعة رجال هؤلاء على قتل صالح، فلما عزموا على ذلك وجاءوا

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأنبياء، باب قول الله تعالى ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَلِأَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ﴾، ١٤٨/٤، رقم ٣٣٧٧، ومسلم في صحيحه، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب النار يدخلها الجبارون والجنة يدخلها الضعفاء، ٢١٩٠/٤، رقم ٢٨٥٥.

(٢) التفسير القرآني للقرآن، عبدالكريم الخطيب ٧٧ / ١.

(٣) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٣ / ٤٤٢.

نعم الله على قوم ثمود وموقفهم منها

أنعم الله تعالى على ثمود بنعم جليلة توجب شكرها، لكن كان لثمود موقفٌ منها نوضحه فيما يأتي:

أولاً: نعم الله تعالى على ثمود:

بعد أن وجه سيدنا صالح عليه السلام قومه إلى توحيد الله تعالى وإفراجه بالعبادة، شرع يذكرهم بنعم الله جلّ وعلا عليهم بأنه أنشأ أباهم آدم من التراب.

وقال لهم أيضاً: ﴿قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنَ اللَّهِ عِزَّةٌ هُوَ آتِشَاكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَأَسْتَعْمِرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيمٌ مُّجِيبٌ﴾ [هود: ٦١].

أي: هو الذي خلقكم، فأنشأكم من الأرض، وجعلكم عمارها، أي: أعطاكموها بما فيها من الزروع والثمار، فهو الخالق الرزاق، فهو الذي يستحق العبادة وحده لا سواه.

﴿فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تَوْبُوا﴾ أي: أقلعوا عما أنتم فيه، وأقبلوا على عبادته فإنه يقبل منكم، ويتجاوز عنكم.

﴿وَأَسْتَعْمِرَكُمْ فِيهَا﴾ أي: وجعلكم عمّاراً فيها من العمران، فقد كانوا زُرّاعاً وُصْناعاً وبنائين، ﴿وَكَانُوا يَنْجَتُونَ مِنَ الْجِبَالِ يَبُوتًا مَّائِينَ﴾ [الحجر: ٨٢].

وقيل: ﴿وَأَسْتَعْمِرَكُمْ﴾ من العمر، أي:

أطال أعماركم فيها، والصحيح الأول. واستعمرهم في الأرض، أي: جعلهم عمارها بعد من كانوا فيها من سلفكم وأبيدوا، وأطال أعمارهم فيها حيث كانت أعمارهم تتراوح ما بين ثلاثمائة سنة إلى ألف سنة، فكانوا ينجرون الحجارة ويتخذون لأنفسهم من الجبال بيوتاً، أي: يخرقونها في الجبال، ولذلك عدلوا عن بناء الطين^(١).

وقيل: ومعنى الإعمار: أنهم جعلوا الأرض عامرة بالبناء والغرس والزرع؛ لأن ذلك يعدّ تعميراً للأرض، حتى سمي الحرث عمارة؛ لأن المقصود منه عمر الأرض^(٢).

كانت لثمود حضارة عمرانية واضحة المعالم، فقد كانوا مهرة في نحتهم الجبال واتخاذها بيوتاً، يسكنون فيها في الشتاء؛ لتحميهم من الأمطار والعواصف التي تأتي إليهم من حين لآخر واتخذوا من السهول قصوراً يقيمون فيها في الصيف. كما مهارة ظاهرة في البناء وقدرة على العمارة لا زالت ماثلة إلى يومنا هذا من نقوش على الحجر، وقطع في واجهات الصخور تنم عن قدرة عظيمة على النحت^(٣).

قال سبحانه وتعالى: ﴿وَأَذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي

(١) فتح القدير، الشوكاني ٣ / ١٤٠.

(٢) التحرير والتنوير، ابن عاشور ١١ / ٢٨٨.

(٣) انظر: المصدر السابق.

وَزُرُوعٍ وَتَحْلٍ طَلْمَهَا ﴿٧٤﴾ أي: ثمرها الذي يطلع منها ﴿هَضِيمٌ﴾ قال ابن عباس: لطيف يانع نضيج، وقيل: هو اللين الرخو. وقيل: متهشم يتفتت إذا مس. وقيل: الهضم هو الذي دخل بعضه في بعض من النضج أو النعومة (٤).

قال الله تعالى: ﴿وَالِكِ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ أَعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهِ غَيْرُهُ هُوَ أَنشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تَوْبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ﴿٦١﴾﴾ [هود: ٦١].

أمرهم بالاستغفار، أي: طلب غفران الذنوب من الله جلّ وعلا والتوبة إليه؛ لأنه تواب رحيم قريب مجيب.

فإن ما فصل من فنون الإحسان داع إلى الاستغفار عما وقع منهم من التفريط والتوبة عما كانوا يباشرونه من القبائح (٥).

ومن تفنن الأسلوب أن جعلت هذه النعم علة لأمرهم بعبادة الله وحده بطريق جملة التعليل، وجعلت علة أيضًا للأمر بالاستغفار والتوبة بطريق التفریع (٦).

وتدل الآثار الموجودة الآن في مدائن صالح على ما كانوا فيه من رغد العيش، تدل عليه واجهات الغرف الجميلة التي نحتها الثموديون في الحجر داخل الصخور، والتي

الْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِنْ سُهولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا فَاذْكُرُوا آيَةَ اللَّهِ وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٧٤﴾ [الأعراف: ٧٤].

وقال تعالى: ﴿وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَرِهِينَ ﴿١٤٩﴾﴾ [الشعراء: ١٤٩].

يقول ابن كثير: بينما كانوا حاذقين ومهرة في البناء والنقش، ألا أنهم جعلوها للمباهاة والفخر؛ أشرا وبطرا وعبثا (١).

وقال تعالى في حقهم أيضًا: ﴿وَكَانُوا يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا مَّامِنِينَ ﴿٨٢﴾﴾ [الحجر: ٨٢].

قال ابن كثير: أي: من غير احتياج إليها، بل أشرا وبطرا وعبثا (٢).

وقال تعالى: ﴿وَتَمُودَ الَّذِينَ جَاءُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ ﴿١﴾﴾ [الفجر: ٩]: أي: نحتوا الصخر (٣).

وأنعم الله عز وجل على ثمود بنعم كثيرة لا تعد ولا تحصى، فأعطاهم الأرض الخصبة، والماء العذب الغزير، والحدائق والنخيل، والزروع والشمار. قال سبحانه وتعالى:

﴿أَتَرَكُونَ فِي مَا هَمَّنَا مَّامِنِينَ ﴿١٦١﴾ فِي جَنَّتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٥٧﴾ وَزُرُوعٍ وَتَحْلٍ طَلْمَهَا هَضِيمًا ﴿١٥٨﴾﴾ [الشعراء: ١٤٦-١٤٨].

﴿أَتَرَكُونَ فِي مَا هَمَّنَا مَّامِنِينَ﴾ أي: في الدنيا من العذاب ﴿فِي جَنَّتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٥٧﴾﴾

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٣/ ٣٥٦.

(٢) المصدر السابق ٤/ ٥٤٣.

(٣) المصدر السابق.

(٤) لباب التأويل، الخازن، ٣/ ٣٣٠.

(٥) إرشاد العقل السليم، أبو السعود، ٣/ ٣٦٣.

(٦) التحرير والتنوير، ابن عاشور، ١١/ ٢٨٨.

تحتوي على أشكال بديعة وعلى سلالم وزخارف وأشكال حيوانات كالأسود والطيور .

قال تعالى: ﴿وَأذْكُرُوا إِذْ جَعَلْنَا خُلُقَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِنْ سُهولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا فَاذْكُرُوا آيَةَ اللَّهِ وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٧٤﴾﴾ [الأعراف: ٧٤].

ومع هذا العمران والحياة الطيبة كانوا مفسدين مشركين.

ثانيًا: موقف ثمود من نعم الله تعالى عليهم:

١. الجحود.

لم تقابل ثمود نعم الله تعالى عليها بالشكر والعرفان، بل قابلوا هذه النعم بالجحود والكفران والنكران، فأرسل الله تعالى إليهم أخاهم صالحًا عليه السلام، فدعاهم إلى عبادة الله وحده ونبذ عبادة الأصنام، فكذبوه وطالبوه بآية دالة على صدقه صلفًا وتكبرًا وعنادًا، فاتاهم الله تعالى الناقة آية بينة وحجة بالغة.

قال تعالى: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنَّدْرِ ﴿٢٣﴾ فَقَالُوا ابْرَأْ لَنَا وَجِدْآ نَتَّبِعُهُ إِنَّا إِذَا لَفَى ضَلَالٍ وَسُعُرٍ ﴿٢٤﴾ أَتَلْفِي الذِّكْرَ عَلَيَّ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌّ ﴿٢٥﴾ سَيَعْمُونَ غَدًا مِنَ الْكَذَّابِ الْأَشِرِّ ﴿٢٦﴾﴾

[القمر: ٢٣-٢٦].

ويروي لنا القرآن أن ثمودًا كذبوا واستهتروا بالنذر التي أرسلها الله إليهم مثل عاد، فلاقوا نفس المصير.

وقال تعالى: ﴿أَنْتَهِنَّا أَنْ تَعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَإِنَّا لَفِي شَكِّ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٦٢﴾﴾ [هود: ٦٢] يعني: إنا مرتابون في قولك، من أرابه، إذا أوقعه في الريبة، وهي: قلق النفس ووقوعها في التهمة^(١).

٢. المعاداة.

بدأ قادة ثمود وكبرائها المعاداة لسيدينا صالح عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام، وقد كان صالح فردًا من أفراد القوم، إلا أن قومه لم يكونوا يتوقعون أن يأتيهم بدين الحق، لذلك فقد فوجئوا عندما سمعوا دعوته وأنه هجر ما كانوا عليه من الانحراف والضلال، كان أول ما جابهوه به أن قذفوه وشتموه.

قال تعالى: ﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضِعِفُوا لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ أَنْتُم مَنَونُونَ أَنْتُمْ مَرْسَلٌ مِنْ رَبِّكُمْ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ ﴿٧٥﴾ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي ءَامَنْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ﴿٧٦﴾﴾ [الأعراف: ٧٥-٧٦].

وقال تعالى: ﴿قَالُوا بَصَلِحْ فَذَكُنْتَ فِينَا مَرْجُومًا قَبْلَ هَذَا أَنْتَهِنَّا أَنْ تَعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَإِنَّا لَفِي شَكِّ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٦٦﴾﴾ [هود: ٦٦].

(١) لباب التأويل، الخازن، ٢/ ٤٩١.

عاقبة قوم ثمود

تحدث القرآن الكريم عن عاقبة قوم ثمود، وذكر أن الله أهلكتهم، وأن هذا الإهلاك مر بمراحل، وهي:

أولاً: التحذير والإنذار من الإهلاك:

ورد تحذير سيدنا صالح عليه السلام لقومه بعبارة ﴿فِيَأْخُذْكُمْ عَذَابٌ﴾ في ثلاثة مواضع من كتاب الله عز وجل، محذراً قومه ثمود، وأنه سيأخذهم عذاب أليم قريب عظيم.

قال تعالى: ﴿هَذِيهِ نَاقَةٌ آلِهَافٍ لَكُمْ آيَةٌ فَذُرُّوهَا تَأْكُلُ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذْكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [الأعراف: ٧٣].

وقال تعالى: ﴿وَيَنْقُورِ هَذِيهِ نَاقَةٌ آلِهَافٍ لَكُمْ آيَةٌ فَذُرُّوهَا تَأْكُلُ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذْكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ﴾ [هود: ٦٤].

وقال عز وجل: ﴿وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذْكُمْ عَذَابٌ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [الشعراء: ١٥٦].

فهو حذرهم أولاً من ﴿عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾، ولكنهم لم يستجيبوا لهذا التحذير، فأكد لهم بعدها بقوله: ﴿عَذَابٌ قَرِيبٌ﴾ أي: أن عذاب الله قد اقترب، ولن تمهلوا^(١)، ولكنهم لم يبالوا بهذا النداء، فجاءهم التحذير الأخير ليصف أن اليوم الذي ينتظرهم قد اقترب

(١) معاني القرآن وإعرابه، الزجاج ٦٠ / ٣.

واستجاب له القليل من القوم، إلا أن غالبية القوم لم يقبلوا دعوته، وكان أشدهم عداوة عليه القوم وزعمائهم، غضبوا من صالح لأنه دعاهم لعبادة الله، فكذبوه وحاولوا أن يضطهدوا الذين آمنوا معه ويعذبوهم، ولم تكن ثمود أول من يفعل ذلك، فهم يكررون الخطأ الذي وقع فيه كل من قوم نوح وعاد الذين عاشوا قبلهم، لهذا نجد أن القرآن يقرن بين هؤلاء الأقسام الثلاثة.

قال تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ﴾ [إبراهيم: ٩].

كثيرًا فقال لهم: ﴿عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾، فأكد صدق هذا الوعد بكلمة ﴿يَوْمٍ﴾، وأنه سيحل بكم من الله يوم عظيم عذابه (١).

ثانيًا: إهلاك قوم ثمود:

ذكر الله سبحانه وتعالى كيفية إهلاك قوم صالح في سور كثيرة؛ كهود والأعراف والحاقة والذاريات والشمس، وغير ذلك.

قصّ الله سبحانه وتعالى علينا ما بلغه قوم ثمود من الارتقاء والقوة، فأخبر أن صالحًا عليه السلام قال لقومه: ﴿وَأذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِنْ سُهولِهَا قُصُورًا وَتَنْجُونَ الْجِبَالَ يَبُوتًا فَادْكُرُوا آيَةَ اللَّهِ وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ (٧٤).

ولكن القوم كفروا وأعرضوا عما قاله لهم أخوهم صالح عليه السلام؛ فكانت النتيجة أن أخذهم العذاب: ﴿فَأَخَذْتَهُمُ الرِّجْفَ فَاصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَنِينًا﴾ (٧٨).

وقد وصف الله عز وجل عذاب ثمود بعدة صفات، منها:
١. الصاعقة.

قال تعالى: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثُمُودَ﴾ (١٣) إِذْ جَاءَتْهُمْ

(١) انظر جامع البيان، الطبري، ١٧ / ٦٢٨.

الرُّسُلَ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ قَالُوا لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لَأَنْزَلَ مِنْ سَمَائِكُمْ آيَاتًا يَمَّا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ﴿١٣﴾ [فصلت: ١٣-١٤].

في هذه الآيات السابقة يذكر الله سبحانه وتعالى أنه عذب عاد وثمود بالصاعقة. والصاعقة: هي الصوت الشديد من الجو وما ذكر من أنها العذاب، أو النار، أو الموت، هي تأثيرات من الصاعقة (٢). فالصاعقة تطلق على الحادثة المبيرة الشديدة الإهلاك (٣).

وقد يريد بها مطلق العذاب (٤). وأضيفت الصاعقة هنا إلى عاد وثمود، وعاد لم تهلكهم الصاعقة، وإنما أهلكهم الريح، وإنما ثمود من أهلكوا بالصاعقة، فاستعملت الصاعقة هنا في حقيقتها ومجازها (٥).

٢. الصيحة.

قال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ ﴿١١﴾ وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا فِي

(٢) انظر: المفردات، الراغب الأصفهاني، ص ٢٨١.

(٣) انظر: تأويل مشكل القرآن، ابن قتيبة ص ٥٠١، لسان العرب، ابن منظور ٤ / ٢٤٥٠.

(٤) انظر: جامع البيان، الطبري، ٢ / ٢٤، المحرر الوجيز، ابن عطية ٥ / ٨.

(٥) انظر: التمهيد والتنوير، ابن عاشور ١١ / ٢٥٢.

يَذِكُرُهُمْ جَثْمِيْنَ ﴿٧٧﴾ [هود: ٦٧].

والصبيحة: هي الصوت الشديد المرتفع، وأصله من تشقيق الصوت، ومن قولهم: إنصاح الخشب أو الثوب إذا انشق وسمع منه صوت (١).

وقال الألويسي: والصياح من صاح يصيح إذا صوت بقوة (٢).

فأخبرت الآيات أن عذاب ثمود كان بالصبيحة، كما قال سبحانه في موضع آخر: ﴿فَأَخَذْتَهُمُ الصَّيْحَةَ مُصْبِحِينَ﴾ [الحجر: ٨٣].

٣. الطاغية.

وكذلك سميت الصبيحة هذه التي أصابت ثمود في موضع آخر من القرآن الكريم بالطاغية.

قال تعالى: ﴿فَأَمَّا ثَمُودُ فَأَهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ﴾ [الحاقة: ٥].

والطاغية: من الطغيان، وهو مجاوزة الحد (٣).

وفي تفسير الطاغية أقوال:

قيل: سميت الطاغية؛ لأنها تجاوزت الحد في قوة الصوت (٤).

وقيل: سميت بذلك بسبب طغيانهم (٥). قال صاحب أضواء البيان: «وقد اختلف في معنى الطاغية فقالوا: الطاغية عقر الناقة، كما في قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَانِهَا﴾ [١١] إِذْ أُنْبِئَتْ أَشْقَاهَا ﴿١٢﴾ [الشمس: ١١-١٢].

فتكون الباء سببية، أي: بسبب طاغيته. وقيل: الطاغية: الصبيحة الشديدة التي أهلكتهم، بدليل قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيرِ الْحَرَابِ﴾ [القمر: ٣١].

فتكون الباء آلية، كقولك: كتبت بالقلم وقطعت بالمسكين.

والذي يشهد له القرآن هو المعنى الثاني لقوله تعالى: ﴿وَفِي ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَنَّوْا حَرَّىٰ جِبَالِكُمْ فَأَمَّا ثَمُودُ فَأَخَذْنَاهُم بِالصَّيْحَةِ وَهُمْ يَنْظُرُونَ﴾ [الذاريات: ٤٣-٤٤] (٦).

٤. الرجفة.

قال تعالى: ﴿فَأَخَذْتَهُمُ الرِّجْفَ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَثْمِينَ﴾ [الأعراف: ٧٨].

الرجفة: هي الزلزلة الشديدة (٧)، من الرجف، وهو الاضطراب الشديد.

وقيل: هي هنا بمعنى: الصبيحة

(١) المفردات، الراغب الأصفهاني ص ٢٨٩.

وانظر: لسان العرب، ابن منظور ٤/٢٥٣٢.

(٢) روح المعاني، الألويسي ٩٦/١٢.

(٣) انظر: فتح القدير، الشوكاني ٨/٢٥٧.

(٤) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٩/٩.

(٥) انظر: المصدرين السابقين.

(٦) فتح القدير، ٨/٢٥٧.

(٧) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٧/٢٤٢.

الشديدة^(١).

أو: هي الصيحة التي تزلزلت لها الأرض^(٢).

وأما قوله تعالى: ﴿فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَنِيحِينَ﴾ فهو من الجنوم: عدم الحراك، أي: خامدين لا حراك لهم^(٣)، وخمدوا من شدة العذاب.

وقال بعضهم أصبحوا كالرماد الجائم^(٤).
[انظر: صالح: عاقبة قوم صالح عليه السلام]

موضوعات ذات صلة:

بنو إسرائيل، صالح، عاد

(١) انظر: المصدر السابق، مفاتيح الغيب، الرازي ١٦٥ / ٤.

(٢) انظر: مدارك التأويل، النسفي، ٥٧٠ / ٢.

(٣) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٧ / ٢٤٢.

(٤) معاني القرآن وإعرابه، الزجاج، ٣٥١ / ٢.